

ماركيــــــــز

الجزء الرابع

الدكتور مزوار محمد سعيد

يشاهدُ ماركيز الكثير مِن أبناء القراصنة وهُم يعيشون أيَّاما مليئة بالأوهام على كافة الاتجاهات وبكلِّ المعاني، تجدهم يكذبون على أنفسهم، محاولين تلوين حيواتهم بألوان يعتقدون أنَّها زاهية، لمجرَّد أنَّهم شاهدوا غيرهم قد أقام ذلك المشروع أو عاش هذا الحُلم، توقهم لإظهار نفسياتهم على غير ما هي عليه، جعلهم يغوصون عميقا في الاستهزاء بالذات، ليخوضوا متاهات لا علاقة لهم بها، ولا طاقة لهم في مواجهتها، فقط ليُقال عنهم: أنَّهم بخير.

سبب معاناة (la souffrance) القراصنة حسب ماركيز هو هذا الانفصال (la séparation) الحاد بين الوجود والتواجد، بين ما هو واقعي معاش، ومدى قبول هؤلاء بواقعهم، بين ما هو موجود كرغبات وما هو مطروح كمعطيات، الأمر يبدو للمرَّة الأولى واضحا، وما على القرصان سوى العودة إلى التركيز على ما يدور حوله، لكنَّ الأستاذ ماركيز يرى صعوبة بالغة عند محاولة تعديل هذه الوضعية، لأنَّه مِن الصَّعب التأثير على الجهلة بجهلهم، هؤلاء الذين يدافعون عن البقاء تحت سلطان العبودية بإيمان أكثر هولا مِن اليقين.

يعيشُ القرصان تحت وطأة المعتقدات التي فُرضت عليه، وقد نجد في الكثير مِن الأوقات أنَّه أقنع نفسه زيفا وكذبا بأنَّه قد وقع ضحية التاريخ، الطبيعة والظروف، فنجد أنَّ القرصان/الضحية يتمرَّدُ ذهنيا على كافة ما يدور في فلكه، لكنَّه واقعيا يدافع عن كلِّ ما يعتبره ذهنيا سببا في حالته البائسة هذه.

سواء تمرَّد القرصان على حياته وحيثياتها أو بقي خاضعا لها ولِتداعياتها، فإنَّه سيعيش تلك المعاناة – الروحية التي تهزمه بشكل قابل للتجديد، وحاد بشكل يسعى نحو هزيمة قراره الذي يتدخَّل البعيد قبل القريب في صياغته، وهذا بالتحديد ما يجعل إرادة العيش في أعماق القرصان تنكسر دون مقاومة تُذكر.

عندما تنظُر إلى غيرك محاولا تقليد ما هُم يهمُّون بالقيام به، فأنتَ وبشكل آلي تفقد الرغبة في الحياة، لأنَّ الإنسان يولد وحيدا (solitaire)، ويموت وحيدا، ويوضع في مأواه الأخير وحيدا، وما الرفقاء سوى خوف مبطَّن مِن الرفيق الدائم لنا، ألا وهو وحدتنا الخالصة والخاصة بنا كغيرنا مِن الأحياء.

أن تعمل على وصولك إلى نهاية الدراسات – العليا في منطقة القراصنة، أين يُزهر الجهل ويتفوَّقُ الجاهلون على غيرهم مِن أبناء النبلاء، وعندما تحاول إظهار نفسك في لباس "المفكِّر" بينما أنتَ الذي لا تجيد سوى الدَّجَل وإعادة تدوير خرافات سمعتها مِن

محيطكَ اليائس، لمَّا تحاول الدخول في عناد بالصراخ بدل مناقشتكَ للأفكار بالمناهج والطرائق العملية/الفكرية، فاعلم أنَّك لستَ إلاَّ حيوانا لا يملك مِن الحيوانية سوى التوحُّش الذاتي والمقموع.

يشعرُ ماركيز بالشفقة على هؤلاء القراصنة، الذين يقتاتون مِن المعاناة دون دراية منهم، محاولين تجاهل تلك الأمراض التي تصيب أرواحهم، لكنَّهم لا يجنون سوى التفاهة والسذاجة التي لا تفارقهم ما داموا على قيد العيش، لأنَّهم فقدوا الحيوية وسجنوا أنفسهم وبأيديهم ذاتيا خلف قضبان العذابات المظلمة.

يواجه ماركيز نفسه كلَّ يوم، يلعب على أوتار المراجعة كلَّ حين، هو مدركٌ تمام الإدراك بأنَّ مساره خاص ومتفرِّد (unique)، وهي نتيجة وصل إليها بعد أكثر مِن عَقْدٍ مِن التفكير وممارسة تطويع الذات، الحرية ليست بالمجان، والتحرُّر مِن أعباء القراصنة يحتاج إلى نضال مستمر ومستميت، لا يمكنكَ أن تعيش العبودية (l'esclavage) بينما أنتَ تحمِل فكرا متنورا، المسألة مثل مكبِّ النفايات، لا يمكن لهذا المكان أن ينشر حوله روائح الأنسيدونس (incidence)، يعني أنَّ ماركيز قد فهِم ما معنى ضرورة التخلُّص مِن هؤلاء الجاهلين الذين يعشقون العبودية حدَّ العربدة، وقد وصل إلى ما معناه: ضرورة زيادة منسوب مناعته العقلية/الفكرية، لأنَّ المتنبي قد صَدَق رأيه في العبيد وكيفية شرائهم.

شربَ القراصنة مِن كأس العبودية الأمر الكثير، حتى صاروا خاضعين خانعين كليا لكافة الرياح الثقافية الأجنبية ونسائمها، بل صاروا يورِّثون هذا الذلَّ الممتع بالنسبة لهم، وراحوا يتفنَّنون في الانبطاح والمذلة، بأن تبنُّوا كافة الصيغ التي لا يمكن أن تخطر على بال غير القرصان، فراح بعضهم يخضع طواعية لهذا وذاك، وعمل البعض المتبقي على الدفاع عن أسيادهم وجلاَّديهم بشكل شكَّل عَلاَمة فارقة في تاريخ العبودية منذ فجر الحياة.

لَمَس ماركيز هذه الحقائق أثناء رحلته الأخيرة، خاصة عندما اقترح عليه – سائق – الرحلة نموذجا لمظهر أحد أبطال هوليود، حتى يقتدي به ماركيز في مظهره الخارجي؛ هذا الفعل جعل ماركيز يعيد الحسابات كلِّها، إذ أنَّ حسن نية ذلك السائق وعفويته تبدوان عاديان للغاية، لكن في نظر ماركيز هنا مكمن الكارثة وفي هذه النقطة تحديدا تظهر عبودية هذا السائق بشكل لا يخلوا مِن الشَّك.

مفهوم أن تختلف القِيَم (Les valeurs) مِن مجتمع لآخر، وعادي للغاية عندما تختلف هذه القيم مِن شخص إلى آخر، لكن ما هو غير عادي ولا هو مفهوم أيضا، عندما يستسلم الإنسان بكامل إرادته إلى تفاهات الآخرين، فيعطيها أهمية لم تجدها تلك التفاهات حتى عند أصحابها الأصليين؛ فعلا! الأمر قد تخطى كافة الحدود والمعايير.

ما لا يدركه سائقنا المحتَرَم، بأنَّ ماركيز يعتبر نفسه شخصا متفرِّدًا، يصنع النموذج الذي يراه مناسبا لحياته، يعيش ما يرغب فيه دون أفكار مسبقة، وحتى ولو سقط في المعاناة بسبب ما هو راغب في القيام به، فإنَّنا نجد الأستاذ ماركيز يحارب بكلِّ قواه، مِن أجل الثبات على ما هو مقتنع به.

لا يمكن للقرصان – مع الاحترام للسائق – أن يفهم هذا النوع مِن النبلاء الذين ينتمي إليهم ماركيز، لأنَّ مَن اعتاد على الخضوع والركوع لغيره، لا يستطيع أن يفهم ما معنى أن يعيش الإنسان شامخا، رافعا رأسه عاليا، ومَن تنازل عن إرادته لمَن لا يراه موجودا على الخريطة، لا يمكنه أن يتفهَّم نمط حياة الأحرار كماركيز، هؤلاء الذين يحملون إرادات تلين أمامها كافة العقبات وتركع أمامها الجبال.

طبيعيٌّ جدًّا للقراصنة بل يعتبروه شرفا عندما يقلِّدون هذا الممثل الشهير أو ذاك، يعتبرون قمَّة "التقدُّم" والقوَّة عندما يلبسون كما يلبس لاعبوا كرة القدم، المغنيين أو رجال الأعمال، فالقرصان بفطرته مسلوب الإرادة، وهذا ما يجعل ذله نمطا مِن أنماط الحياة، وقد ساعدت الأعراف البالية والتقاليد المثقوبة على تعزيز هذا الخضوع حتى يبقى القراصنة في أسفل التصنيف عندما تجتمع الأمم وتتبارز على ساحة الثقافات والأفكار.

عندما تصادف في حياتكَ عزيزي القارئ قرصانا لأوَّل مَرَّة في حياتكَ، فإنَّ أوَّل عملية ذهنية تقع في خاطره، هو محاولاته المستميتة لتصنيفك ضمن إحدى الخانات الجاهزة في عقليته اليابسة/اليائسة/البائسة، بعدها يعمل على محاولة إظهار ما ليس فيه، حتى يظهر أمامك بمظهر يثير إعجابكَ أو إعجازكَ، هو لا يفهم ما معنى أن يعمل الإنسان على تشكيل شخصيته ذاتيا، وهو يعتقد أيضا أنَّ كافة البشر مثله، عبارة عن عبيد، لهذا هو وعبر عقلية العبْد، هو يحاول اكتشاف النموذج (l'exemple) الذي يفترض أنَّك تعبده.

ما أصعب أن يعيش ماركيز بعقل حرّ يتخطى كافة المحظورات والمعقولات على أرض القراصنة التي لا تعترف سوى بالعبيد! بالإضافة إلى شعور الشَّفقة الذي يستولي على

الأستاذ ماركيز عند مصادفته لـ: هكذا حالات، فإنَّه يجد نفسه مضطرا إلى الشعور بالتقزز مِن هؤلاء القوم.

يعمل ماركيز على البقاء نقيا، بعيدا عن النماذج الجاهزة، فهو مِن القلائل مِن النُّبلاء الذين ينحتون مسارهم في الحياة بأناملهم وأظافرهم لو اضطرَّهم الأمر لذلك، والمظهر الخارجي جزء مِن هذا يا سائقنا المحتَرَم.

شَرَعَ ماركيز في تدخين غليونه الشهير، بعدها أشاح ببصره نحو المرآة ليتذكَّر نفسه، تلك التي ضاعت بين زحمة الصراعات اليومية مع الحياة وبها، فراح يقع أمام الأصداف الذهنية طريح العلل، لكنَّه قرر بعد ذلك أن يطرق ذاته مِن زاوية أخرى، راجيا أن يجد بعض الراحة بين دفات ذكرياته ومواقفه، تلك التي جعلته يكون على ما هو عليه اليوم: محارب على الجبهة الثقافية، فقام بجولة سريعة بين أفكاره، مستعملا طريقة "النقد الذاتي" (l'autocritique)، لعلَّه يجيب عن سؤال: مَن أنا؟

أنا الذي يكتب بنهم غير مبالٍ بآراء الآخرين، فأجعلهم يتحسسون مني حدَّ الهوس، أدفعهم مِن حيث لا يدركون إلى قراءة كلماتي بشكل مرتعش، لأنَّ القراصنة يخافون مِن الكلمة المكتوبة حدَّ الرعب، وهذا ما يجعلهم يحملون الكثير من الكره في قلوبهم حين يكونون بالقرب مني، بعدها يبحثون عن سبب ولو كانت تافه أو أتفه من التفاهة للفرار بجلودهم عن طريقي، ولا أخفيكم، فأنا أجد متعة لا نظير لها عندما يكرهون ما أكتبه عنهم، فأنا أتبنى ما قاله لاعب كرة القدم البرتغالي رونالدو: أحب الجماهير عندما تكرهني!

البعض يرى في نفسي متكبرا، وهذا تصوُّرٌ مقبول للغاية، لكنه ليس دقيقا فأنا أحمل طفلا مزهرا بداخلي، لكنني فخور بأنني متكبِّرٌ على مَن يرفض الكلمة ويحارب أهلها وناسها بكافة قواه، وبالمقابل، أنا أرى بأنَّني لا أحمل في حياتي أيَّ امتياز يجعلني أتكبَّر به على الآخرين، فأنا مِن أبناء الشعب، بل أحد مربي أبناءَه، لستُ مِن أصحاب الغنى الفاحش، ولستُ عبقريا، أنا إنسان بسيط، لكنَّ عيبي أنَّني أعيش بين قراصنة يكرهون "الإنسان" ويخافون "البساطة" لأنها تعرِّي وضعهم البائس.

لديَّ مشكلة في التواصل مع غيري أيضا، وهذه المشكلة هي التي اعتبرها أمَّ المصائب، ففي كثير من الأحيان، لغتي الأكاديمية تختلف عن اللسان العامي أو تلك الفصحى المعطوبة التي تستعملها "النخبة المعتوهة" من القراصنة، وهذا ما يضعف وصول المعاني التي أنسجها عبر الكلمات بشكل واضح، وعبر هذا تُفتَح التأويلات على

مصراعيْها، فأكون غالبا ضحية لسوء فهم مصدره ضعف اللغة/اللهجة التي يتم تداولها وعجزها على استيعاب المفاهيم التي أتداولها على صفحات مقالاتي أو كتبي.

لستُ الوحيد الذي يلفظه أبناء قومه، فقد كان محمد عليه الصلاة السلام غريبا بين قريش قبل الدعوة وعدوا لها بعدما دعاهم إلى سواء السبيل، لقد باع باراك أوباما الأيس كريم قبل أن يصبح أول رئيس أسود للبيت الأبيض، لقد باع نجيب محفوظ كتبه حتى يطعم نفسه قبل أن يفوز بجائزة نوبل، لقد بات هتلر أياما تحت جسور فيينا وعلى أرصفة بافاريا قبل أن يصنع قوة رهيبة أخضعت أوربا بأكملها، لقد كان عنترة بن شداد عَبْدًا قبل أن يجعل الجزيرة العربية ترتعد بمجرد سماع اسمه، لقد كان الكثير من العظماء بلا أسماء قبل أن تلمع أسماؤهم كالنجوم في سماء التاريخ والذاكرة، لهذا ماركيز يعلم بأنَّه لا يوجد نبي في قومه، وخاصة إن كان هؤلاء القوم قراصنة مِن أبشع ما انجبت البشرية عبر تاريخها الطويل.

طبيعيٌّ للغاية أن يتعرَّض ماركيز للانتقاد، للنقد للهجوم وللتجريح بطرائق نتنة، لقد اختار طريقه، سواء اختلفتَ معه أو اتفقتَ مع ما يراه، فهو كاتِب وفيلسوف في نهاية المطاف، عصاميُّ التكوين، وبأدوات ذاتية بشكل كامل، لهذا فهو يرى نفسه كالشجرة المثمرة التي يرميها الناس بالطوب، وهو فخور بهذا.

قد يتعب ماركيز فيكتب مقالا هنا، أو رواية هناك، قد يتحدث عن ظاهرة اجتماعية هنا أو ظاهرة ثقافية هناك، لكنه لن يبدِّل جلده الثقافي إرضاء لحفنة من القراصنة، مَثَلهم في الحياة كمَثَل الذي يركب سيارة "404" باشي، متجه إلى المسلخ وهو يصيح، أين لا ينفع الصياح.

عاد ماركيز إلى رشده بعدما قد سمح لذهنه بالغوص في عمقه، ليجد بأنَّ غرفته قد امتلأت بالدخان، سار بعدها باحثا عن منفذ للهواء، ففتح النافذة وأفسح للتيار البارد بالدخول إلى ذلك المكان المغلق، كما أفسح قبل عَقْدْ من الزمن المجال لكل الأفكار بكل اللغات بدخول عقله الذي لا يعرف التوقف.

فُتحت البوابة الخشبية المؤدية لتلك القاعة الواسعة، فدخل ماركيز سائرا بهدوء شديد الاحترام باتجاه الحاضرين، سلَّم عليهم واحدا واحدا محيا كلَّ واحدٍ منهم مِن بعيد، طبعا بسبب إجراءات الوقاية مِن الفيروس التاجي، ثمَّ اتخذ مكانا في الزاوية محاولا اتخاذ موقع له في الواجهة، حتى يطلَّ بابتسامته التائهة على الجميع.

ماركيز اليوم في احدى قاعات نادي "التدخين" الذي اضمَّ إليه منذ أكثر مِن شهر، بعدما عانى مِن الكثير مِن المضايقات عندما صار مدخنا شرها، فعلى أرض القراصنة يُعتبَر المدخِّنُ إنسانا مزعجا وكريها، بسبب روائح التبغ الذي تنبعث من ملابسه، خاصة إن كان فقيرا، لأنَّ الأغنياء حتى ولو كانت روائحهم تشبه روائح المجاري يبقون ذوو مكانات مهمة في حياة القراصنة.

بلاد القراصنة تحارب المدخنين فقط كماركيز، بعد مرحلة فترة القرن العشرين، عندما كان التدخين فعلا مِن مظاهر الرفاهية وَاليُسر، حينما كان حلالا، تُعرض منتجاته وعلبه على صفحات الجرائد والمجلاَّت، ها قد صار التدخين اليوم لأمثال ماركيز جريمة يُعاقب عليها عُرفُ القراصنة الخرف ضمنيا، وهذا ما جعل ماركيز يصبح عضوا نشطا مِن أعضاء نادي التدخين، حتى يتمكَّن مِن التدخين دون ازعاج، فالمدخِّن في النهاية إنسان وله حقوق كباقي أبناء الإنسانية!

أشعل ماركيز غليونه الفاخر، وراح يتلذذ بما يدخل رئتيْه، وبينما هو في حالة نشوة لا يعرفها سوى المدخِّن بشراهة، فاجأه أحد زملائه بطرح سؤال مباغت عليه، كان حول مظهره الذي يغيِّره ماركيز كما يغيِّر القراصنة كلماتهم الكاذبة؛ يا أستاذ ماركيز ما قصتُّكَ مع تغييركَ لمظهركَ في كلِّ مرَّةٍ، بشكل كامل تقريبا، ودون سابق إنذار؟

لم يعِر الأستاذ ماركيز السائل أيَّ اعتبار، قبل أن يُنهي ما بين يديْه مِن تبغ، بعدها وضع غليونه على طاولة زجاجية موضوعة أمامه، تأمَّل الغرفة مِن حوله، فهاله صمت الحاضرين، كانت الأعناق مصوبة كلَّها نحوه، منتظرة جواب الأستاذ ماركيز، متوقِّعة في الوقت نفسه، صاعقة فكرية مِن الصواعق التي اعتاد الأستاذ ماركيز تفجيرها فوق أذهانهم؛ وعلى غير المُتوقَّع قال الأستاذ ماركيز: بعيدا عن كون مظهري أمام الناس مسألة شخصية، إلاَّ أنَّ سؤالَكَ مهمٌّ أيُّها الزميل الأنيق.

أطيل شعر رأسي أو ذقني، ألبس بذلة من طقم ذا ثلاثة قطع أم لباسا رياضيا فضفاضا، ألبس تبانا أو جلابة، لا أفهم مشكلة القراصنة في هذا الأمر، سوى أنَّهُم يرغبون بالقيام بما أقوم به، لكنَّهُم لا يملكون الجرأة لفعل هذا، هُم ليس لديْهم مشكلة مع مظهري، بل لهُم مشاكل عصيبة مَع الجرأة (l'audace) في حدِّ ذاتها.

كلُّ فتاة مِن بنات القراصنة ترغب بأن تلبس تنورة قصيرة، تضع عطرا فاخرا، تدخِّن الشيشة بعد الظهيرة، قبل أن تستقلَّ سيارة جميلة لتقودها نحو مكان عمل حبيبها، فتأخذه باتجاه مطعم أنيق، تمضي معه ليلة في عسل الشبق حتى الصباح؛ لكنَّ الفتاة التي تعيش

هذا، تعتبرها باقي فتيات القراصنة، تعيسة فاجرة وبعيدة عن منطق التديُّن، ليرموها بكلِّ الأوصاف، مِن أهمها اعتبارها عاهرة أو مومس، جريمتها أنَّها عاشت ما يحلمن به هنَّ في أعماقهنَّ، لكنهنَّ لا يملكن الجرأة لفعل ذلك، هذا فيما يخص الفتيات، بينما ذكور القراصنة، يكرهون هذا النوع من الفتيات علنا، ويقومون بسبِّهنَّ جهرا، بينما في أعماقهم، هُم يعشقون هذا النوع "الشقيّ" من الفتيات، هؤلاء المتحررات اللائي يسبحن بعيدا عن منطق القراصنة.

أعاد اشعال الأستاذ ماركيز لغليونه من جديد، بعدما قام بإعادة تعبئته ثانية بالتبغ الراقي، أخذ نَفَسًا عميقا، قبل أن يلتفتَ نحو زميله قائلا: كُن جريئا بما يكفي، لتغيير مظهرك وقتما تشاء، وكيفما تشاء، لا تضيِّع وقتكَ الثمين في مراقبتي أيُّها الأحمق الغالي.

أعلَنوها حربًا على ماركيز!

حربا إعلامية تحاول تقزيمَ إنجازاته الفكرية والفلسفية، أو بالأحرى حربا كلامية تحاول إظهاره في ثوب المتكبِّر، وأحيانا حربا دعائية مغرضَةً ترغب في تصوير الأستاذ ماركيز في صورة المجنون؛ ولكنَّ كلَّ هذه الحروب، ودون أيِّ استثناءٍ، يفوز فيها هذا الفيلسوف بشكل مُبهِر، لأنَّه وببساطة: أعداؤه لا يرتقون إلى مقامه، هُم فقراء فكريا، فكيف لهُم مواجهة أحد النبلاء؟ طبعًا لا يستطيعون ذلك! لكنَّهُم يحاولون لأنَّ الغيض يأكُل قلوبَهم الميّتة كما تأكل السوسة جذع الشجرة اليابس.

منذ فترة حاول أحد الجاهلين مِن أبناء القراصنة البؤساء أن يقارع الفيلسوف ماركيز في مجاله، لكنَّه عاد خائبا رافعا العويل والولولة كعاهرة قدَّمت جسمها بالمجان، فراحت تنتحب سوء حظها، وبالمقابل لم يخرج الأستاذ ماركيز منتصرا من هذه المواجهة فحسب، بل كشف النِّقاب عن الدَّرَكِ الذي وصل إليه مستوى جهل جامعة القراصنة، راسما صورة مرعبة لأجيال تجاوزوا الجهل المركَّب بكثير، حتى أنَّهم صاروا جاهلين بالسليقة والضرورة؛ إنَّها طبيعة الأشياء، ففاقِد المعرفة مِن أين له أن يقدِّمها للآخرين؟

ما لم يفهمه القراصنة، هو أنَّ الأستاذ ماركيز يعمل بجهده الخاص وبعزيمة قلَّ نظيرها على أرض القراصنة، هو يسخِّرُ كلَّ إمكاناته العقلية والشعورية لخدمة مشروعه الفلسفي القائم على العقل، إذ هو يثق في عقله إلى الحدِّ الأقصى، معطيا له حقَّ الفيتو في كافة مسائل الحياة المختلفة، وهذا يبقى عصيا على مَن اعتادوا المرح وسط أوحال الجهالة الصماء والتفاهة الضائعة.

لا يزال الأستاذ ماركيز يدركُ خطورة أن يتعامل مع الجاهلين على كافة المستويات في حياته اليومية، بل هو يعرف تمام المعرفة بأنَّ مَن يعاديه وإن كثرت الحجج، إلاَّ أنَّ السبب الخفي لهؤلاء الأعداء هو أمر مشتركٌ بينهم، ألا وهو عجزه على امتلاكِ تلك الطاقة التي جعلت مِن ماركيز يعلو على الجميع عبر تفانيه الكامل في القراءة وعبر اللغات المختلفة؛ أَيْ أنَّ المسألة قد صارت مفهومة وواضحة: الكلُّ يرغب في هزيمة ماركيز، لكن عبر إطلاق الإشاعات فقط.

لو تنازَل الأستاذ ماركيز عن كرامته الفكرية لكان اليوم أستاذا جامعيا برُتبة كذّابٍ ينشر كذبه بين أوساط طلبته، لكنَّ ضميره الفلسفي جعله يترفَّعُ عن مِثل هذه التفاهات، ودفعه نحو الابتعاد عن قوائم الترشيحات لتلك المسابقات الأكاديمية البائسة/اليائسة التي يدفعُ الناجحون فيها إمَّا رشاوى لأصحاب القرار، أو يستعينون بالمعارف والوسائط، والفتيات يدفعن هذا الثمن مِن أجسامهنَّ لقاء كلمة "دكتور"، لكنَّ الأستاذ ماركيز لا يزال مصرا على البقاء بعيدا عن هذه المصائب التي يغرق فيها قومه حتى الأعناق، دون دراية منهم للأسف!

لم يجد الأستاذ ماركيز أكثر خطورة بين أعدائه مِن ذلك العدوِّ المُضمَر الذي يتجسَّدُ في صورة كافة البشر، والذين يعملون جاهدين على إسقاطه في فخِّ كلام خرافةٍ على طريقة القراصنة الرديئة، وهذا ما جعل أعداءَه يجتمعون على مواجهته، لقد بات خَطَرًا ناعمًا يكشطُ تلك الصور الكاذبة التي يحاولون تلوينها بألوان العلوم المزوَّرة والمعارف المفبركة، وهذا ما أدَّى إلى تصاعد تلك الحَمَلات الكلامية ضدَّه، لقد نجح الأستاذ ماركيز في وضع كلَّ مَن يحيطون به في حفرة المُبهَمِ والغامض، وهذا أسوء سيناريو كان سيحدث للقراصنة على يد فيلسوفٍ مِثل ماركيز.

تلك الهجمات التي تسقُطُ كالسِّهام على رأس ماركيز لا تزيده سوى إصرارا على مواصلة دربه الفلسفي حتى النهاية، إن ما تمَّ اتهامه بالجنون، فالأستاذ يعترف عَلَنًا بأنَّه مجنون (the genius)، وإن كانت تهمته بأنَّه ينحاز كليا إلى العقل، فهذا توجهه الذي دافع عنه منذ بداية خطِّه لحروفه الأولى في هذه الحياة، وإن كان يراه البعض بأنَّه متكبِّر، فذلك شأنهم، لكن ما هو ثابت، هو أنَّ ماركيز يمضي على طريق مسيرته، وبالبقية لا يهمه أمرها ولا يربطه بها سوى ذلك الشعور العميق بالشفقة، نعم أيُّها السادة: الأستاذ ماركيز يشفق على القراصنة كثيرا.

دخل ماركيز تلك المقهى كعادته وهو يحمل جريدة "الجمهورية"، وقبل أن يجلس طَلَب مِن النادل كوبا مِن الشاي مع بعض الحليب، بعدها جَلَسَ يتصفَّحُ الجريدة ملقيا نظره على الكثير مِن العناوين المختلفة، أهمُّها حسب الأستاذ ماركيز هي الأخبار الثقافية والفنية، ثمَّ تليها المعرفية والعلمية، وقبل أن ينهي جولته اليومية تلك، يمرُّ بالصفحة الرياضية فالسياسية قبل أن يقرأ عموده المفضَّل دائما.

لبَّى النادل طَلَبَ ماركيز واضعا كوب الشاي بالحليب على الطاولة وملقيا التحية قبل انصرافه، فراح ماركيز يتذوَّق الشاي بالكثير مِن الاهتمام، مراقبا باب المقهى والجوَّ الربيعي الذي يسود ذلك اليوم مِن شتاء هذه السنة، وإذا بالباب يدفعه أحد السَّادَة، يحمل محفظة، ويمشي بخطوات وقورة، خمَّنَ ماركيز بأنَّه "أستاذا" في احدى المؤسسات التعليمية التابعة لسلطة القراصنة، ومع ذلك لم يعره الكثير مِن الاهتمام.

تقدَّم ذلك الرجُل باتجاه ماركيز مبتسما، ثمَّ عَمَدَ إلى الجلوس بجانبه على أحد الكراسي وهو يقول: هل تسمحُ لي يا أستاذ ببعضٍ مِن وقتك؟

- طبعا! تفضل.

عدَّل الرجُل جلسته، ألقى بمحفظته جانبا، ودون أن يغيِّر ملامح وجهه الباسم، مدَّ يده نحو ماركيز مصافحا.

- شكرا لك يا أستاذ ماركيز، أنا برونيلو[1] مِن صحيفة "الشروق"، وأرغب بالحديث معكَ منذ زمن طويل.
- صحيفة؟ سأل ماركيز وهو لا يدري ما يقول ومصافحا ذلك السيِّد.
- نعم هي الشروق، منذ مدَّة طويلة وأنا أحلم بهذا اللقاء – لكنَّه سرعان ما ذابت ابتسامته عندما شاهد صحيفة "الجمهورية" على الطاولة – آه نعم! إذن الأستاذ ماركيز ليس زبونا لصحيفتنا!
- إذا كنتَ تقصدُ "الشروق" فأنا هجرتها منذ زمن بعيد، منذ المناوشات التي تمت تغطيتها بين فريق القراصنة لكرة القدم وفريق بلاد النهر الوطني، بعدها قررتُ التوجه للجمهورية كونها تعتني بالأخبار المحلية أكثر من غيرها وهذا فعلا ما يهمني اليوم.
- لكلٍّ منَّا توجهاته القرائية، وها أنا اكتشف بأنَّ الأستاذ ماركيز يفضل الأخبار المحلية قبل غيرها – كتب هذه العبارة على مذكرة أخرجها من جيب سترته – هذا فعلا أمر مهم.

[1] Umberto Eco, Il Nome della rosa, Gruppo Editioriale Fabbri – Bompiani, Milano 1980.

- عذرا يا سيِّد....
- برونيلو، اسمي برونيلو يا أستاذ ماركيز
- أوكي سيِّد برونيلو، لي شرف عظيم للقائكَ اليوم، واعذرني إن نسيتُ الاسم أحيانا، فأنا لا أتذكَّر معظم الأسماء التي ألتقيها في حياتي، عدى عن التواريخ المختلفة، لهذا أعتذر بشدَّة، لكن هلا أطلعتني عن سبب هذا اللقاء بيننا؟
- لا عليك أستاذ ماركيز كلُّنا ننسى ها، ها، ها – ضحكتُه أزعجت ماركيز لكنَّه بذل جهدا حتى لا يغضب – أنا أحاول منذ زمن أن أعرفكَ عن قرب، خاصة وأنني مِن قرائكَ الأوفياء، مقالاتك الأسبوعية تلهمني، إن لم يكن لديكَ مانع بالطبع؟
- حسنا، طبعا ليس لدي أيُّ مانع شخصي، لكنَّ الوقت هو الذي يمنعني حتى عن أحبائي ورفقائي فضلا عن أصدقائي هذه الأيام – قالها ماركيز وهو يعدِّلُ مِن جلسته ويشرب القليل مِن كوبه بهدوء – إذن سنقابل بعضنا كثيرا على ما يبدو يا سيِّد برونيلو؟
- هذا مِن حسن حظي ربما، ها، ها، ها – تمنى ماركيز لو ينسى هذا المتطفل أمر هذا النوع من القهقهة في حضوره على الأقل، فهو يثير اشمئزازه بها.

نظر ماركيز إلى ساعته، فتغيَّرت ملامح وجهه، مما جعل برونيلو يفهم بأنَّ وقت ذهاب ماركيز قد حان.

- إنه وقت عملكَ كما اعتقد يا أستاذ ماركيز، آسف إن كنتُ قد أفسدتُ عليْكَ خلوَتَك.
- لا إطلاقا، لا تزال هناك بعض الدقائق في يدي، كما أنني مبتهجٌ بهذا اللقاء، لكن يا ترى ما الذي تريد معرفته؟
- هي أمور عظيمة في نظر برونيلو، بديهية في نظر فيلسوف غريب مِثل الأستاذ ماركيز.
- إذن لنبدأ، لا يزال أمامي دقيقتيْن.
- يا أستاذ ماركيز، ما هي الحياة (La vie)؟ وهل تستحق كلَّ ما نعانيه قربانا لنعيشها؟

أعاد ماركيز التحديق بساعته فأدركَ بأنَّ وقت استراحته قد انتهى، رفع رأسه محدِّقًا بجدية في وجه برونيلو، وقبل أن ينطق سبقه برونيلو قائلا: لا عليك، يمكنكَ الذهاب، أنا مَن سيدفع الحساب، نلتقي في يوم قريب للغاية إن شاء الله.

- نعم يا سيِّد برونيلو، لكنَّه سؤال مهم للغاية، أشكركَ جزيل الشكر على طرحه، نعم! لنا لقاء آخر.

بعدها حمل ماركيز نفسه، جريدته ومحفظته البنية اللون، صافح برونيلو، ثمَّ مسح بيده اليمنى لحيته، قبل أن يخرج مِن المقهى وكلُّه شوق للعودة.

بدأ ماركيز يخطُّ بعض الكلمات على دفتره الخاص، هو يكتبُ الكثير مِن الملاحظات التي تزعِجُ القراصنة – وهو فخور بذلك – أين يرى فيما يفعله – فعل الكتابة – نعمة أنعمت بها السَّماء عليه، فبعدما جَلسَ يدخن غليونه، بدأت الأفكار تنساب على ذهنه كما تنساب زيت الزيتون الصافية على ألسنة العذارى، هو فنَّانٌ في رَصْف المعاني ونسج الكلمات.

كتَبَ ماركيز يقول:

على أرض القراصنة كلُّ الجوانب مظلمة، حتى النور صار معتادا على الظلام والظلمات، ومن غرابة اللغة، فقد تعانق الظلام والظلم على القَدر نفسه أمام محراب الجذور اللغوية، فكانا رفيقيْن دائمَا الحضور على مسارح الحياة فـــي "الجنَّةِ ما وراء البحر"، هذا ما أنتجَ عبيدا مِن أسوأ ما خلقه الله سبحانه وتعالى.

على هذه الزاوية مِن الأرض – أرض القراصنة – الميكانيكي يصبحُ معلِّمًا، المعلِّمُ يداوي جراح الناس ويصف لهُم الأدوية، بين الراعي يصبحُ كيميائيا يبيع في الصيدليات العقاقير والمسكنات، الفقيه يصبحُ مشعوذا، الحارس يصبحُ مديرا، والنسر يصبح حمامة، بينما الذئب يستقيل قبل أن يمسكَ بأولى طرائده.

لا أحد يقدِّمُ استقالته على أرض القراصنة – ما عدى الذئاب؛ هي الوحيدة التي لها الشجاعة لتستقيل – أمَّا القراصنة، هُم لا يعرفون ما معنى كلمة "استقالة" (resignation) لأنَّهُم لا يفكِّرون بترك ما هُم فيه، حتى ولو جار عليهم، بل اعتيادهم على المظالم والظالمين جعلهم يؤمنون بحياة البؤس التي يعيشونها بأفراحٍ تحاكي الأنين بأثواب الحنين.

في نفسية كلِّ قرصان هَوَسٌ غير محدود بالسُّلطة، لا يهم ما نوعها وما مصدرها، في كلِّ قرصانٍ ذلك الغِلُّ الذي يصنع منه ساديا غير قادر على تجاوز الإهانة (the insult) التي يسلِّطها عليه الجميع، فيحاول بدوره رميها على الكلّ، وهذا ما يجعل ماركيز في كثير من الأوقات يهتزُّ روحيا بشكل عنيف، فتجري دموعه كالأنهار لتعمِّد على محيَّاه آخر الابتسامات الساخرة/الماكرة.

لا يستطيع ماركيز أن يتخيَّل كلبا قد صار أسدًا، مع أنَّ القراصنة مِن حوله لا يأبهون لهذه التصرفات، لأنَّ منطقهم غائب، وضمائرهم قد مسَّها التخدير كما يمسُّ الجن الإنس على فترات؛ لقد فهم ماركيز بأنَّ آليات القراصنة تعشق كلَّ الموبقات لتبقى، وتتشبثُ بكافة أذرع العفن لتستمر، وهذا ما لا يقبله لوجوده الطَّاهر أبدا.

يرى الأستاذ ماركيز بأنَّ الاستقالة الوحيدة التي تعترف بها بلاد القراصنة هي استقالة عقولهم مِن مؤسسة الحياة، أمَّا الباقي فمحكوم عليه بالبقاء بين جدران الضياع والرداءة إلى يوم الدين، وهذا ما يدفع ماركيز إلى اليقين الذي يرى بأنَّ ما هو مطلوب لدى الفيلسوف في وضعيات كهذه، هو الإبقاء على عقله صافيا نقيا، عامِلاً؛ ليحفر بأفكاره لنفسه سبيل النجاة.

عندما يغيب العقل تغيب الحرية، وعندما تغيب الحرية يغيب الضمير، وعندما يغيب الضمير تغيب الحياة؛ هذا ما جعل ماركيز يغمض عينيْه؛ محاولا تجاوز لحظة سماعه لعواء ذلك الذئب العجوز، الذي صعد جَبَل "عصفور" حتى تسمعه منطقة "كولورادو" بأسرها.

عذابٌ رهيب يصيب الذات عندما تسبق هذه الأخيرة محيطها بشكل فَلَكي، ليس مِن الصَّعب أن تلعب دور الأنبياء والنُّبلاء على أرض تمقته لدرجة الخيال، ليس من السهولة أبدا أن تقول للأبكم أنتَ أبكم على أرض القراصنة، لأنَّ الأبكم في هذه المناطق من العالَم والتاريخ، يُقال له دائما: أنتَ عندليب الأزل يا عذب الصوت، يا صاحب الحنجرة الياقوتية؛ ولهذا السبب بالذات، خسر الأستاذ ماركيز الكثير من القراصنة على طول طريقه نحو لتعقُّل، هو يدرك تماما بأنَّ ثمن وصفه للأشياء بما فيها مِن خصائص، وتسمية الأمور بأسمائها، سيكون فوق طاقاته التي غالبا ما تعيد تذكيره ببشريته الناقصة.

شاهَدَ ماركيز الدمار الهائل نتيجة تقاتل الجنس السلافي على شاشة سي أن ان (CNN) الأميركية، فعادت إلى ذاكرته صور أشلاء أطفال الصومال، العراق، سوريا، الجزائر، اليمن، لبنان وفلسطين كما أفغانستان، الكاميرات التي نقلت وتنقل دمار أراضي أوربا الشرقية هي ذاتها التي نقلت لنا أشلاء الأبرياء عبر العالَم، مِن بورما إلى القدس، لكنَّ الضمير العالَمي هذه المرَّة ها قد أظهر ضحالة ميزانه، ذلك الذي يصنِّفُ البشر حسب العقلية النازية التي ادعى هذا الغرب ذاته، أنَّه بريء مِن تصرفاتها: هل دماء السلافيين زرقاء بينما دماء أبناء غزة وجنين حمراء؟

لقد أحبَّ الأستاذ ماركيز العالَم الغربي وطريقته في معالجة المسائل الثقافية المختلفة، ولكنَّه وبقدر محبته له في الناحية الثقافية، قد كرهه في الناحية السياسية وحتى الاقتصادية، فهذان المجالان هُما ما جعل الإنسان الغربي كائنا امبريالي/احتلالي، لا يتوانَ أبدا في إظهار وجهه العنصري كلَّما وقعت مصالحه قيد المفاوضات أو الرهانات، هو يجعل القضايا الإنسانية في حُكم المؤجَّل، عندما تتعلق المسائل بالدولار أو الإبهار.

الجيوب والأرصدة المالية هي التي تحرِّك الآلات الدعائية والعسكرية، وما قامت به موسكو على أراضي "حواف المنطقة السلافية" يظهر ذلك بوضوح، لقد انهارت في طرفة عيْن كلُّ المقالات التي كانت تدعوا إلى الحرية، الأخوة والمساواة بين البشر، ليحلَّ محلَّها صوت يقول: هؤلاء أوربيون، مسيحيون، شعرهم أشقر وعيونهم زرقاء، ولهذه المواصفات علينا احتضانهم، هكذا دوَّت الأصوات التي خرجت من حناجر المراسلين والمذيعين خلال غزوة السلاف لأراضي أجدادهم.

لا يتركُ الإنسانُ الغربي فرصة تمر، دون أن يستغلها ليؤكِّدَ على غطرسته وهوله بالقوَّة التي يمتلكها منذ سقوط غرناطة سنة 1492م، وصولا إلى القرن الواحد والعشرين، هذه العقلية التي تعمل بكافة الوسائل المتاحة لترسيخ صورة التفوُّق الغربي أمام بقية شعوب الأرض، هي ذاتها العقلية التي غزى بها غوبلز عقول العالَم، وهي العقلية ذاتها التي غزت بها اسبارطة بقية المُدُن، وهي العقلية نفسها التي جعلت أبناء الفرنسيس يتعالون على الجزائريين والفيتناميين حتى موعد كتابة هذه الأسطر.

الصورة واضحة أمام عيون ماركيز للمرة الأولى منذ غزو بلاد ما بين النهريْن سنة 2003م مِن طرف جيوش الشركات المتعددة الجنسيات وتحت ستار أحد أحفاد رعاة البقر انطلاقا مِن المكتب البيضوي، هي تلك الصورة التي رفعت جنكزخان إلى مصاف العظماء ورسمت أساطير أخيل وعنترة بن شداد على صخور الأذهان منذ أمد بعيد، لقد تغيَّرت وسائل الإنسان بانقلاب الأزمان، لكنَّ التكتيكات بقية هي عينها، وتلك المشاعر الدفينة في أوحال حقوق الإنسان وسيادة القانون ها هي تنكسر أمام عقلية الجشع التي عرفناها عبر القيصر يوليوس ونابوليونِ بونابارت.

نعم! هي الحرب إذن، لا أخلاق فيها ولا معنى فيها للضعيف، لغتها واضحة: سأسحقكَ قدر ما أستطيع، حتى ولو كنتَ ذا بشرة بيضاء مثلي، عيون زرقاء كعيوني، وتتحدث اللغة ذاتها، لغة الأسلاف.

لقد قتل قابيل أخاه هابيل مِن قبل، ورمى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في الجب، لقد تآمرت قريش على قريشيٍّ مثلهم مِن قبيلة بني هاشم، وعملوا على قتله حتى تتوزع دماءه على القبائل العربية كلِّها، لقد تحارب اليابانيون فيما بينهم، الصينيون كذلك، الإيطاليون، الألمان، الأميركيين.... الخ، الحرب مكتوبة على صفحات أقدار البشر، هي عملية موسمية لا تطول، وهي سرعان ما ترحل مخلفة خلفها وضوحا يلفه الصمت الرهيب، إلى جانب أعداد هائلة مِن الضحايا، الأيتام، الثكالى، المصابين والشهداء مِن الطرفيْن المتصارعيْن، لأنَّ الثابت في كافة الحروب منذ فجر التاريخ، أنها بلا منتصر ولا خاسر، رغم إصرار غرور البشر على العكس.

جليٌّ أمام عيون الأستاذ ماركيز تلك الصورة التي تشرحُ نفاق رجال الدين عند استعمال تعاليم الديانات لأغراضهم الخاصة، متحججين بقداسة المقدسات لدى المؤمنين، فينفذون مِن زاوية الإيمان ليستغلوا الإنسان أبشع استغلال، لكنَّ الأستاذ ماركيز ما لبث حتى اكتشف بأنَّ استعمال الدين لقضاء الكثير من الحوائج الوسخة لدى بعض المنافقين لا يختلف أبدا عند الفئة المقابلة، إذ هناكَ مَن يستغلُّ الإنسانية كشعار أو عنوان مِن أجل تمرير ما يرشح عن نفسه مِن مساوئ فيسوِّقها للبسطاء على أنَّها مِن القضايا الإنسانية الهامة، لتتساوى الإنسانية بالديانات في الاستعمال السيّء عند استغلال بعض الأغبياء لهاتيْن الأداتيْن لأجل بلوغ ما لم يبلغوه بالأخلاق والفحولة.

لطالما سوَّقت لنا المنظومة الغربية الإنسانية (l'humanité) على أنَّها القضية الأساسية لبناء الجيوش وتسليحها بالعتاد، وغالبا ما شاهد ماركيز القوات الأميركية وهي تنقذ هذا أو ذاك مضحية بحيوات أفراد جيشها العتيد أحيانا، طبعا شاهده على الشاشات المختلفة، لأنَّ هوليود – أكبر مصنع للخرافات في التاريخ – هي التي عملت خلال عقود مِن الزمن على تعريف الإنسان المعاصر بالإنسانية الغربية، هذه الإنسانية التي نشاهدها اليوم هي تستيقظ نصرة لأبناء السلافيين الذين يُقتلون على أيادي أبناء أحفادهم السلافيين أيضا، بينما كلُّنا يعلم بأنَّ هذه الإنسانية ذاتها لطالما كانت عمياء/صماء/خرساء إن ما تعلَّق الأمر بالأجناس الأخرى.

لكن وفي المقابل: نجد احدى بنات هوليود عينها تنفض الغبار عن هذا الغرب العجوز المنافق، لتخطَّ رسما خارج المألوف، ذلك الذي يتَّصل بالإنسانية بشكلها الصافي والتي هي تتخذ من النقاء مرجعية ومقصدا، إنَّها الممثلة أنجلينا جولي، فبينما كان العالَم ينافق المنظومة الأوربية باكيـــا على ما يحدث في شرق أوربا، كانت هذه المرأة تلتفت إلى معاناة أطفال "أصل العرب"، لقد أقدمت هذه المرأة على توجيه صفعة صاعقة على خدِّ

ما نعيشه مِن ازدواجية لطالما أرهقت كاهل الإنسان على اختلاف انتماءاته، بل ها هي تقدِّمُ دروسا في النبل والرقي.

أنجلينا كشفت بزيارتها لهؤلاء الفقراء المطحونين على أرض الجزيرة العربية زيف ونفاق كافة الممثلات والمغنيات العربيات اللائي أنهكن قلوبنا وصدعن عقولنا وهنَّ يشرحن لنا طرائق الوصول إلى الإنسانية والحرية وحتى الفردانية والارتقاء الحضاري، يبدو بأنَّ هذه الفئة من العربيات/المسلمات لم يعرفن الإنسانية سوى على مسارح الرقص أو بين قصور الأمراء، لأنَّهنَّ لم يقدِّمن شيئا ولو رمزيا تضامنا مع براءة شعوب بأكملها، وهي ليست بعيدة، بل هي بجوارها تماما.

هذا هو الغرب الذي أحبَّه ماركيز فراح يدافع عن النبلاء فيه بكلِّ ما يملك من طاقات، الغرب الذي أنجب أنجلينا جولي ومَن يتبنى الجانب الإنساني الذي ينهل منه هذه المرأة، قد نختلف معها في طريقة انتقائها للباسها، نوعية عطرها، أو حتى طريقتها في الحياة والعيش، لكن علينا أن نتبع نهج الأستاذ ماركيز الذي رفع قبعاته كلها لهذه الفتاة الغربية التي تناصر القضايا الإنسانية العادلة بالأفعال قبل الأقوال.

هناك دائما في مختلف العصور، الحضارات، الديانات، الثقافات والفلسفات أناس يبيعون أنفسهم لقاء مساندتهم للإنسانية النقية، هناك على الدوام أشخاصٌ يحملون في قلوبهم ذلك الإيمان الراسخ بوجود الإنسان مهما كان لونه، لسانه، اعتقاده وعقيدته، هُم يؤمنون بضرورة تحرير الأفراد مِن غطرسة الواقع والذوات بالمطلق، يقينهم هو الذي يقودهم إلى التضحية والبذل مِن أجل بلوغ مقاصدهم النبيلة.

لقد فهم الأستاذ ماركيز ما أقدمت عليه أنجلينا جولي لأنَّه على المسار ذاته، وهو الذي يدرك قبل غيره بأنَّ هذا الطريق مليء بالمتاعب، لأنَّ جنود البهتان أقوى بكثير من عزيمة النبلاء، وهُم أكثر عددا منهم أيضا، لكنَّ نقطة النور لطالما هزمت جيوش الظلمات ولو بعد حين.

السَّماءُ تمطر بغزارة، الساعة تجاوزت الخامسة والنصف فجرا، يحمل الأستاذ ماركيز محفظته ومظلته المهشمة، وهو يسير بين ظلمات الليل تحت أشعة الأنوار على أطراف الشوارع الفارغة، إلى أن خطرت بباله أسئلة كثيرة تدور حول الحياة، الوفاة، الثقة، العائلة/الأسرة والكثير مِن الأفكار التي تجعله يتحمَّسُ حينا وتفتر إرادته البحثية أحيانا أخرى.

أهمُّ تلك الأسئلة التي جالت بعُمقٍ ماركيز كانت حول أهمية الحياة لديْه، عن مدى تمسُّكِه بالمسار الذي يرغب فيه ويحلم به، عن القادِمِ مِن الأيَّام، عن المجهول التي ينتظره بين الفينة والأخرى، عن مدى القيمة النفسية التي تستحوذ عليْه، عن القدرات الرهيبة التي تتساقطُ منه كما تتساقط أوراق الشجر في موسم الخريف.

يشعر الأستاذ ماركيز بأنَّه أمام مرحلة حاسمة مِن حياته، المغادرة صارت حتمية، لكنَّ الطريقة هي التي لم يستطع أن يرسمها بعد، هو حائر ما بين تفجير كلِّ شيء بعد رحيله وإغلاق باب عودته للأبد، أو الإبقاء على شَعرَة معاوية بعده؛ وهنا مربط الفَرس، لقد اعتاد الأستاذ ماركيز بعد مغادرته ألاَّ يترك خلفه سوى الخراب.

مِن الصعب أن يواجه الإنسان أحباءه، أن ينحت طريقا بيديْه دون مساعدة، لقد اعتاد ماركيز على القيام بذلك، لكنَّ مرحلة كهذه، أين يصبح سؤال "لا عودة" "لا رجوع" (without return)، هو أهمُّ الأسئلة، مِن القِيَم التي حملها ماركيز طيلة حياته، هي قيمة العائلة/الأسرة، لقد نما على عقيدة حماية العائلة والأسرة بالخصوص بكلِّ ما يستطيع، معتبرا الأسرة هي منبع الانبثاق وهي المآل الاجتماعي الأخير، هي العقيدة الإيطالية بخالص تشكُّلاتها، فهل سيواجه ماركيز نفسه؟ هل سيقرر ماركيز التخلي عن المكمن الذي لطالما واجه الجميع مِن أجل الإبقاء عليه قائما؟ هل سيحطِّم ماركيز أحد مقدَّساته؟

يؤمن ماركيز بأنَّ آخر العقبات قبل "انطلاقته الكبرى" هُم الذين يسهرون على رعايته منذ كان طفلا خضوعا لقوانين تجمُّع القراصنة، هو يرى بأنَّ تدخُّلاتهم في حياته هي العائق الأهم في هذه المرحلة أمام عبوره إلى حقبة مغايرة تماما لما اعتاد التعامل معه، يحتاج الحسم في هذه المسألة إلى شجاعة كبيرة.

مَن يعرف ماركيز جيِّدًا، يعلم مسبقا بأنَّ هذا الإنسان مِن أشجع الناس الذين قد تصادفهم خلال رحلة عيشك في هذه الحياة، بهذه الخاصية تمكَّن سابقا مِن عبور عقبات اجتماعية ونفسية بشكل خرافي، لقد جمع كافة الحجارة التي سقطت عليه خلال سيره نحو أهدافه، وبنى منها قلعة فكرية/ثقافية بشكل يعجز العقل عن تصديقه.

ليس غريبا أن يختار الأستاذ ماركيز مواجهة العائلة/الأسرة إن ما تأكَّد له بأنَّهم صاروا عقبات أمام مشروع حياته الجديد، خاصة وأنَّه لم يعد يشعر بالأمان في البيت الذي بناه حجرا بحجر مع والده – نصره الله –! الأمر يبدو اعجازيا، لكنه ليس غريبا عن ماركيز أبدا؛ عندما تختفي الثقة من علاقتك بالأستاذ ماركيز، فإنَّ ذلك يُعتبَر دليلا قويا على

ظهور أولى أسطر مقدمة نهاية تلك العلاقة التي تجمعك به، والتاريخ الشخصي لهذا الماركيز حافل بعلاقات قد أنهاها ماركيز عينه بقوة وبشكل يكاد يكون مطلقا.

اعتدنا على جرأة ماركيز المجنونة، اعتدنا على مواقفه الثابتة، اعتدنا على سيره بجانب الهاوية، اعتدنا على قوَّة تصميمه على المضي حتى النهاية، اعتدنا على جنونه الذي جعل منه إنسانًا يحترمه الشرفاء ويكرهه الجبناء حدَّ الهَوَس؛ وهذا ما يجعل منه إنسانًا متفردا بين أبناء جيله المخضرم.

سيغادر ماركيز هذه الحياة التي يعيشها على أراضي الجنة ما وراء البحر، هذا قراره الأخير والحاسم، سيغادر هذه البلاد التي يديرها الثعابين بقهر المخلصين والنبلاء من أهلها، والمسألة لم تعد سوى مسألة توقيت، والعارف بماركيز ودقته، يعلم مدى تقديسه للزمن والمواقيت في حياته، لكنَّ المبهم حتى اليوم هو: هل سيحرق سفينته التي تصل بينه وبين الأسرة الصغيرة بعد عبوره مضيق نفسه الطارق أم لا؟ الأيَّامُ بيننا، وكما يردد ماركيز دائما: لكلِّ شيء توقيته الخاص.